شعر

عصفورة التذكار

شعر / مرعي بن محمد القرني

عصفورة التذكار لا تتعبي ... وغردي في خاطري واطربي
ترنمي للأمس غني له ... وابكي على يومي وما حل بي
فالأمس كان الهمس أنشودة ... واليوم ينعى اليوم قبلي أبي

* *

أبها وما أبهاك من طلعة ... يا زهرة تزهو بكف الصبي
يا رونق الحسن وإشراقه ... يا جنة المصطاف للمجتبي
ويا عروساً غرة حرة ... حوراء ليست من إماء السبي

* *

يا أيها العذراء زفي لنا ... البشرى بأن مازلت لم تخطبي
مذ فارقت عيناي تلك الربى ... أغرقتها في دمعها الصيب

* *

عصفورة التذكار طيري بنا ... من مشرق الأرض إلى المغرب
وذكريني ما مضى إنني ... أعيش بين الناس كالأجرب

* *

سنين عمري لو عقمت فما ... كنت تمنين بأن تنجبي
طفولة الأمس وعاماً مضى ... هلا أتيت ساعة واذهبي
هلا روى الراوي حديث الصبا ... وكيف عاش النمر بعد الظبي
وكيف أن الظبيَ لم يرتدعْ ... عن غيه أو كيف ذل الأبي
من يغرس الزقوم في بيته ... ويقطف الريحان إلا الغبي

* *

يا شاعراً قد سل أقلامه ... وبعثر الأوراق في المكتب
كيما يناجي بنت أفكاره ... بكراً وليس البكر كالثيّب

* *

يا طائراً يشدو بألحانه ... على غصون البان للمعجب
ناشدتك الرحمن أنشودة ... أحدو بها في رحلة الموكب

* *

قالوا تناس الظبي واسل الهوى ... «أقوى من النسيان ذكرى» الظبي

النثر الفني عند أهل الحديث

بقلم/ محمد رستم*

يطول عجبُ الباحث المنصف عندما يعلمُ أنّ كثيرًا من النثر الفني عند أهل الحديث، قد أصابه الإهمال من قبل المعتنين بالأدب العربي: تأريخًا لمراحله واتجاهاته، ونقدًا لأساليبه وفنونه، وتذوقًا لنصوصه ومتونه.

وهذا الإهمال نجده واضحًا عند كثير من الدارسين، الذين أفردوا النثر الفني بالدراسة والتحليل، كالدكتور زكي مبارك في «النثر الفني في القرن الرابع الهجري»، ومحمد عبدالغني الشيخ في «النثر الفني في العصر العبّاسي الأول: اتجاهاته، وتطوره»، وأنيس المقدسي في «تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي»[1] وغيرهم كثير.

وفي رأينا أن سبب هذا الإهمال يرجع إلى أمرين:

الأول: الاعتقاد الجازم أن ثمة مناقضة صارخة بين الفقه والأدب، والعلم والشعر، فحيثما اجتمع - عند أصحاب هذا الاعتقاد - الفقه والأدب في قلب رجل واحد، كان حقًا على مؤرخ الأدب وناقده أن يُعرض عنه، ويزدري أدبه، ويُطلق فيه لسانه بأنه: «شعر فقيه، وأدب محدث»، وإن كان صاحبه ذا ملكة قوية، وطبع مُرهف، وذوق رفيع. وهذا رأي مدخول، ومذهب مرفوض، قد بيّن عُواره المتخصصون وأطنبوا في ذلك، وأقدر من علمناه تصدى لبيان وهَنه العلامة عبدالله كنون في كتابه «أدب الفقهاء»[2].

الثاني: الجهل الصارخ بنصوص أدب أهل الحديث الرفيعة، والقصور الشديد عن تتبعها من مظانها في التواريخ وكتب الرجال والسير والأخبار والرحلات، والجوامع الأدبية وغيرها، واستجازت الحكم على هذه الآثار بالضعف والإسفاف.

وإذا كنا قد نوهنا في هذا الموضع بالأسباب التي شدت أهل الحديث إلى الأدب، ومكنتهم من النظم والنثر[3]، فإننا - ههنا - نلم ببعض مظاهر عناية هذه الطائفة بالنثر الفني على وجه الخصوص، ليصح لنا بعد الكلام على أنواعه وخصائصه، فمن بين هذه المظاهر:

١ - ذم أهل الحديث لمن لا عناية له بطلب العربية - التي هي وعاء الدين - وتقويم اللسان وصيانة المنطق عن اللحن، وجعل بعضهم مثل من طلب الحديث، ولم يُبصر العربية كمثل رجل عليه برنس وليس له رأس[4]، أو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها[5]، ولقد نعى الحافظ ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ) على بعض ضعفة الفقهاء، عدم تحرزهم من لحن العوام، فقال: «... ولقد بُلي من ذلك من ضعفة الفقهاء مَن صغُر من الأدب مُراده، وقل في طريق العربية زاده، وضعفت عن تلك اللطائف طباعه، وتناءت عن تلك المناهل رباعه»[6].

٢ - وُجد في أهل الحديث قوم جمعوا بين العلم بالحديث وفنونه، والإمامة في اللسان والأدب، كالحافظ قاسم بن أصبغ البياني القرطبي (ت

---

* عضو رابطة علماء المغرب، وحاصل على دبلوم الدراسات العليا في علوم السنة، يعمل أستاذًا مساعدًا بكلية الآداب في بني ملال.

٣٤٠هـ)، قال ابن الفرضي: «كان بصيرًا بالحديث والرجال، نبيلاً في النحو والغريب والشعر»[٧]، وكالحافظ قاسم ابن ثابت بن حزم السرقسطي (ت ٣٠٢هـ) الذي يقال إنه أول من أدخل إلى الأندلس كتاب «العين»[٨]، وكالحافظ الحسن بن أحمد الهمذاني (ت ٥٦٩هـ) الذي كان يحفظ «الجمهرة»[٩]، وكالحافظ رضي الدين الحسن بن محمد الصاغاني ويقال الصغاني (ت ٦٠٥هـ) حامل لواء اللغة في زمانه، الذي كان يحفظ «غريب أبي عبيد»، وألف مجمع البحرين في اللغة، والتكملة على الصحاح، والعُباب وغير ذلك[١٠].

٣ - عناية بعض أهل الحديث بالتأليف في أدب الكاتب الناثر، ومن بين هؤلاء ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) الذي ألف كتابه «أدب الكاتب»، لمّا رأى أكثر أهل زمانه «عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطيرين، ولأهله كارهين، أما الناشئ منهم فراغب في التعليم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس»[١١]. فعمل «لمغفل التأديب كتبًا خفافًا في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد، يشتمل كل كتاب منها على فن»[١٢]، ولقد تبوأ هذا الكتاب منزلة رفيعة بين الأدباء حتى عُدَّ - كما نقل ابن خلدون عن مشايخه - من أصول الأدب وأركانه.

٤ - ومن مظاهر عناية أهل الحديث بالنثر الفني، حرص علمائهم على تأليف الكتب في إصلاح الغلط، الذي قد يقع من المحدث قصدًا أو عن غير قصد، حفاظًا على أداء اللفظ النبوي الشريف فصيحًا بليغًا، كما جاءت به الرواية الصحيحة، وحفظه الوعاة، ورعاية لرونق العربية، ونصاعة الديباجة، وهكذا وجد بين أهل الحديث طبقة من العلماء في هذا المجال، من بينهم: الحافظ الخطابي (ت٣٨٨هـ) في كتابه «إصلاح غلط المحدثين» الذي يُعد من أحسن ما ألف في كتب التصحيح اللغوي.

كما وُجد اتجاه آخر عُني بشرح غريب ما وقع في الحديث النبوي، ليسهل استعماله على الكاتب، فيكون حلية لكلامه، وزينة لإنشائه، ومن بين

إسهام علموس أهل الحديث في كتب النثر الفني ..

العلماء الذين ألفوا في هذا المضمار: الحافظ النضر بن شُميل البصري (ت ٢٠٤هـ)، والحافظ أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي (ت ٢٢٤هـ)[١٣]، والحافظ أبو أحمد الحسن بن عبدالله العسكري (ت ٣٨٢هـ) الذي ألف كتابه «التصحيف»[١٤]، والحافظ أبو السعادات أثير الدين بن الأثير الموصلي (ت ٦٠٦هـ)[١٥].

٥ - وصف الرجل المحدث بالإجادة في الترسل، والبراعة في الكتابة، والبلاغة في الإنشاء، وعدم اعتبار ذلك من لغو القول أو فضوله، فهذا الصلاح الصفدي يصف الحافظ ابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ) بأنه: «كان حافظًا بارعًا، متوغلاً بهضاب الأدب، عارفًا متفننًا بليغًا في إنشائه، ناظمًا ناثرًا مُترسلاً، لم يضم الزمان مثله في أحشائه»[١٦]، ويمضي الصلاح الصفدي في طريقته البليغة البديعة، في تعداد العلوم التي برز فيها الحافظ تقي الدين السُّبكي (ت ٧٥٦هـ) فيقول: «... وأما الأدب فصاحب الذخيرة[١٧]، استعطى، وواضع اليتيمة[١٨] تركها وذهب إلى أهله يتمطى»[١٩] ولو تتبع باحث هذا الأمر لوجد عليه شواهد كثيرة تمتلئ بها كتب الرجال والتراجم والسير، ولكننا ههنا نجتزئ بما مضى.

٦ - اهتمام أهل الحديث بكتب اللغة والأدب، واهتبالهم بروايتها عن مصنفيها، وعنايتهم بقراءتها وتحصيلها، فالقاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ) درس الأدب شعرًا ونثرًا على عدد كبير من الأدباء، كالأديب الراوية أبي عبدالله بن سليمان التغري، الذي أخذ عنه كتاب الكامل للمبرد، كما قرأ بنفسه أمهات الكتب الأدبية ككتاب الزاهر لأبي بكر الأنباري، والأمالي لأبي علي القالي، وكتاب الحماسة لأبي الفتوح، والمقتضب للمبرد أيضًا، وأدب الكاتب لابن قتيبة، والإيضاح للفارسي[٢٠]، والحافظ ابن خير (ت ٧٧٥هـ) روى بأسانيد متصلة كثيرًا من الكتب النحوية واللغوية والأدبية، والشروح وأشعار العرب والمحدثين[٢١]، والحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) يروي القاموس عن مؤلفه المجد الفيروزبادي (ت ٨١٧هـ) قال: «اجتمعت به في زبيد، وفي وادي

الخصيب، وناولني جُلَّ القاموس، وأذن لي مع المناولة أن أرويه عنه»[٢٢].

ولقد نظرت فيما وقع إلي من نثر أهل الحديث الفني، فألفيته يتنوع إلى أنواع كثيرة منها :

١ - التحميد والصلاة : وأنت إذا تتبعت هذا النوع في نثر أهل الحديث، وجدته شيئًا كثيرًا بتعدد ما ألَّف أهل الحديث من كتب ورسائل، نمقوا مطالعها بهذا التحميد، وتلك الصلاة، وننتخب للقارئ الكريم تحميدًا للحافظ الحاكم (ت ٤٠٥هـ) صاحب المستدرك يقول فيه : «الحمد لله ذي المن والإحسان، والقدرة والسلطان، الذي أنشأ الخلق بربوبيته، وجنسهم بمشيئته، واصطفى منهم طائفة أصفياء، وجعلهم بررة أتقياء، فهم خواص عباده، وأوتاد بلاده، يصرف عنهم البلايا، ويخصهم بالخيرات والعطايا، فهم القائمون بإظهار دينه، والمتمسكون بسنن نبيه، فله الحمد على ما قدر وقضى، وأشهد أن لا إله إلا الله الذي زجر عن اتخاذ الأولياء دون كتابه، واتباع الخلق دون نبيه صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن محمدًا عبده المصطفى، ورسوله المجتبى، بلغ عنه رسالته، فصلى الله عليه آمرًا، وناهيًا ومبيحًا وزاجرًا، وعلى آله الطيبين»[٢٣].

٢ - الرسائل : وهي أهم أغراض النثر، ولقد برع فيها أهل الحديث أيما براعة، وأبدعوا فيها ما شاء الله لهم أن يبدعوا، ويمكن تقسيم هذا النوع باعتبار موضوعه إلى الأقسام الآتية :

(أ) الإخوانيات : وأحسن ما يمثل به لهذا القسم، تلك المكاتبات الكثيرة التي دارت بين الحافظ الرامهرمزي (ت ٣٦٠هـ) والأديب أبي الفضل ابن العميد، نسوق واحدة منها تكون مثالاً لما وراءها، فقد كتب أبو الفضل ابن العميد إلى الرامهرمزي كتابًا فأجابه الرامهرمزي بكتاب فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم، قرأت التوقيع أطال الله بقاء الأستاذ الرئيس، فشحذ الفطنة، وآنس الوحدة، وألبس العزة، وأفاد البهجة، وقلت كما قال رؤبة لما استزاره أبو مُسلم صاحب الدعوة :

لبيك إذا دعوتني لبيكا أحمد ربي سابقا إليكا

فأما الإجابة عنه أفصح بيان خُط بأكرم بنان، وأوضح للزهر المؤنق لمالك رقاب المنطق، فما أنا منها بقريب وهيهات، وأنّى لي التناوش من مكان بعيد، لكني على الأثر، ولا أتأخر عن الوقت المنتظر إن شاء الله تعالى»[٢٤].

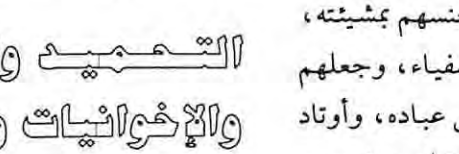

(ب) الرسائل العلمية : وأشهر ما لأهل الحديث من ذلك رسالة الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) إلى الحافظ الإمام الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ)، وجواب الليث عنها[٢٥]. وفيما يلي طرفٌ من رسالة مالك إلى الليث : يقول فيها : «... كتبت إليك، وأنا ومن قبلي من الولدان والأهل على ما تحب، والله محمود، جاءني كتابك تذكر من حالك، ونعَم الله عليك الذي أنا به مسرور، وأسأل الله أن يستمر علينا وعليك صالح ما أنعم به علينا وعليك، وأن يجعلنا له شاكرين، وفهمت ما ذكرت في كتب بعثت بها لأعرضها لك، وأبعث بها إليك، فقد فعلت ذلك، وغيرت منها حتى صح أمرها على ما تحب ... وكان حبيب إليّ حفظك، وقضاء حاجتك، وأنت لذلك أهل، وصبرت لك نفسي في ساعات لم أكن أعرض فيها، لأن الحج فيها، فتأتيك مع الذي جاءني بها حيث دفعتها إليه، وبلغت من ذلك الذي رأيت أنه يلزمني نحو حقك وحرمتك، وقد نشطني ما استطلعت مما قبلي من ذلك في ابتدائك بالنصيحة لك، ورجوت لك أن يكون لها عندك موضع، ولم يكن يمنعني من ذلك قبل اليوم أن لا يكون رأيي لم يزل فيك جميلاً، إلا أنك لم تكن تذاكرني شيئًا من هذا الأمر ولا تكتب فيه إليّ، فانظر - رحمك الله - فيما كتبت إليك فيه لنفسك، واعلم أني أرجو أن لا يكون دعاني إلى ما كتبت به إليك، إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك، والضن بك، فأنزل كتابي منك منزله، فإنك إن تفعل تعلم أني لم آلك نصحًا...»[٢٦].

(ج) الرسائل الأدبية : ونعني بها تلك الكتب المؤلفة على هيئة كراس صغير، أو جزء لطيف كما يقول أهل الحديث - في الموضوع الواحد - وذلك في أسلوب أدبي بديع، يجمع بين جزالة اللفظ، وسمو المعنى وطرافة الموضوع

المطروق، فمن هذا الضرب: كتاب «العزلة» للحافظ الخطابي، و«روضة العقلاء، ونزهة الفضلاء» للحافظ ابن حبان (ت ٣٥٤هـ)، و«الأخلاق والسير في مداواة النفوس» للحافظ ابن حزم (ت ٤٥٦هـ)، و«طوق الحمامة في الألفة والالاف» له أيضًا، و«الدر المنضود في ذم البخل ومدح الجود» للحافظ محمد عبدالرؤوف المناوي (١٠٣١هـ) وغير ذلك.

(د) تحرير الإجازات العلمية[٢٧]: ومما يمثل به لهذا الغرض ما كتبه الحافظ أبو بكر محمد بن الحسن بن حُبَيش[٢٨] مجيزًا فإنه قال: «المسؤول مبذول إن شاء الله على التنجيز ولكن شروط الإجازة موجودة في المجاز، معدومة في المجيز، والله سبحانه يصفح بكرمه، ومنه، ويشكر كل فاضل على تحسين ظنه . . .»[٢٩].

(هـ) المتفرقات: ويمكن أن يدخل فيها ما لعله أوجز رسالة في تاريخ الترسل العربي، وهي تلك الرسالة التي كتبها الإمام الشعبي (١٠٤هـ) إلى الحجاج، لما كتب إليه يسأله حاجة فاعتل عليه، فكتب إليه الشعبي: «والله لا عذر لك، وأنت والي العراق، وابن عظيم القريتين»[٣٠].

٣ - المقامات: طرق أهل الحديث هذا الباب الطريف، الذي يقوم على الحكاية والقص بأسلوب أدبي مسجوع غالبًا، وكان الحافظ جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) من بين هؤلاء الذين ساهموا بنصيب كبير في هذا النوع، بمقامات كثيرة جمعت في مجلدين، غالبها في الرد على مناوئيه وخصومه، والانتصار لآرائه في بعض المسائل العلمية المختلف فيها قديمًا وحديثًا، وفيما يلي نورد طرفًا من المقامة التي سماها: «الكاوي في تاريخ السخاوي»[٣١]: «. . . يا أرباب النهى والألباب، وأصحاب المعارف والآداب وأولي الفتاوى والأحكام، وذوي الألسنة والأقلام، وأئمة الفقه والسنة، وهداة الدين الذين آراؤهم أمضى من الأسنة، ما ترون في رجل ألف تاريخًا جمع فيه أكابر وأعيانًا، ونصبه لأكل لحومهم خوانًا، ملأه بذكر المساوئ، وثلب الأعراض، وفوق فيه سهامًا على

تأثروا بالمعاني الإسلامية والمثل العليا وأجادوا التعبير

قدر أغراضه، والأعراض هي الأغراض، جعل لحم المسلمين من جملة طعامه وإدامه، واستغرق في أكلها أوقات فطره وصيامه، ولم يفرق فيه بين جليل وحقير ولا بين مأمور وأمير ولا بين مرؤوس ورئيس . . .»[٣٢].

٤ - المقالات: «وهو باب جديد في الأدب العربي، على اعتبار المعنى الحديث للأدب الذي يرمي إلى عد جميع الأشكال الكلامية، التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن آرائه بلسانه أو قلمه، سواء في الدرس الفني واللغوي، أو البحث العلمي والفلسفي - موضوعًا للأدب يجب أن يدرس ويبحث بروح أدبية محضة»[٣٣]، خلافًا لمن يرى أن ثمة فرقًا بين الكتابة العلمية مثلاً والكتابة الأدبية، فالأولى «يراد بها تقرير الحقائق، وشرح المذاهب، وعرض البراهين، فهي كتابة خالية من السجع والازدواج، إلا في أحوال قليلة، والكاتب مشغول بسرد الحقائق، لا بتنميق الإنشاء»[٣٤].

وهذا الباب واسع جدًا يمكن تصريف الكلام فيه على النحو التالي:

أولاً: تقرير الحقائق العلمية: ونمثل لذلك بثلاثة نقول عن ثلاثة أئمة كبار من أهل الحديث هم:

١ - الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) الذي يقول بعد أن ساق أخبارًا كثيرة تفيد عدالة الصحابة: «. . . والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم، المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق له، فهم على هذه الصفة إلا أن يثبت على أحد ارتكاب ما لا يحتمل إلا قصد المعصية، والخروج من باب التأويل، فيحكم بسقوط العدالة، وقد برأهم الله من ذلك، ورفع أقدارهم عنه، على أنه لو لم يرد من الله عز وجل ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه - لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة! وبذل المهج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين - القطع على عدالتهم، والاعتقاد لنزاهتهم، وأنهم

أفضل من جميع المعدلين والمزكين الذين يجيئون من بعدهم أبد الآبدين»[٣٥].

٢ - القاضي عياض الذي يقول في أثناء التنويه بفضل أهل الحديث: «ورحم الله سلفنا من الأئمة المرضيين، والأعلام السابقين، والقدوة الصالحين من أهل الحديث وفقهائهم، قرنًا بعد قرن، فلولا اهتبالهم بنقله، وتوفرهم على سماعه وحمله، واحتسابهم في إذاعته ونشره، وبحثهم عن مشهوره وغريبه، وتنخيلهم[٣٦] لصحيحه من سقيمه، لضاعت السنن والآثار، ولاختلط الأمر والنهي، وبطل الاستنباط والاعتبار، كما اعترى من لم يعتن بها، وأعرض عنها بتزيين الشيطان ذلك له من الخوارج والمعتزلة، وضعفة أهل الرأي، حتى انسل أكثرهم عن الدين، وأتت فتاويهم ومذاهبهم مختلة القوانين، وذلك لأنهم اتبعوا السبل، وعدلوا عن الطريق، وبنوا أمرهم على غير أصل وثيق»[٣٧].

٣ - ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ): الذي يقول: «وإنما يعرف فضل القرآن من عرف كلام العرب، فعرف اللغة، وعلم العربية، وعلم البيان، ونظر في أشعار العرب، وخطبها ومقاولاتها في مواطن افتخارها ورسائلها، وأراجيزها وأسجاعها، فعلم منها تلوين الخطاب ومعدوله وفنون البلاغة، وضروب الفصاحة، وأجناس التجنيس، وبدائع البديع، ومحاسن الحكم والأمثال، فإذا علم ذلك، ونظر في هذا الكتاب العزيز، ورأى ما أودعه الله سبحانه فيه من البلاغة والفصاحة، وفنون البيان، فقد أوتي فيه العجب العُجاب، والقول الفصل اللباب، والبلاغة الناصعة التي تحير الألباب، وتغلق دونها الأبواب، فكان خطابه للعرب بلسانهم لتقوم به الحجة عليهم، ومجاراته لهم في ميدان الفصاحة ليسبل رداء عجزهم عليهم، ويثبت أنه ليس من خطابهم لديهم، فعجزت عن مجاراته فصحاؤهم، وكلت عن النطق بمثله ألسنة بلغائهم، وبرز في رونق الجمال والجلال في أعدل ميزان من المناسبة والاعتدال، ولذلك يقع في النفوس، عند تلاوته، وسماعه من الروعة ما يملأ القلوب هيبة، والنفوس خشية، وتستلذه الأسماع، وتميل إليه بالحنين الطباع، سواء كانت فاهمة لمعانيه، أو غير فاهمة، عالمة بما يحتويه أو غير عالمة، كافرة بما جاء به أو مؤمنة . . .»[٣٨].

ثانيًا: أدب المواعظ والنصائح والوصايا، وفي هذا النوع:

١ - أدب الوعظ: وأشهر من كتب في هذا الضرب الحافظ ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، الذي قيل فيه أنه كان فارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق في البلاغة والبراعة، وألف في ذلك مؤلفات كثيرة، نسوق مثالاً واحدًا من واحد منها يقول: «إخواني أوقدوا أدهان الأذهان في ليل الفكر، صابروا سنى الجدب لعام الخصب، تعصروا، فمن أدلج في غياهب ليل العُلى على نجائب الصبر، صبح منزل السرور في السر، ومن نام على فراش الكسل، سال به سيل التمادي إلى وادي الأسف»[٣٩].

ب - أدب تهذيب النفوس وتزكيتها: ونعني به كل ما ألف في تصفية النفس من أدرانها، وحملها على الخشية والورع، وسياستها على المراقبة، ووصف الدواء الناجع لأدوائها، والدعوة إلى التحلي بمكارم الأخلاق، وجميل المناقب والصفات، ومن كتب أهل الحديث في هذا الضرب «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» لابن حزم، و«ذم الهوى لابن الجوزي»، و«روضة المحبين، ونزهة المشتاقين» لابن قيم الجوزية، و«معيد النعم ومبيد النقم» للتاج السبكي، وغير ذلك.

ج - أدب الوصايا والنصائح: ولعل أجمع ما لأهل الحديث في هذا الباب، نصيحة ابن الجوزي إلى ولده التي سماها: «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد»، نقف بالقارئ على قول ابن الجوزي فيها: «. . . اعلم يا بُني - وفقك الله للصواب - أنه لم يتميز الآدمي بالعقل، إلا ليعمل بمقتضاه، فاستحضر عقلك، وأعمل فكرك، واخل بنفسك تعلم بالدليل أنك مخلوق مكلف، وأن عليك فرائض أنت مطالب بها، وأن الملكين يحصيان ألفاظك ونظراتك، وأن أنفاس الحي خطاه إلى أجله، ومقدار اللبث في الدنيا قليل، والحبس في القبور طويل، والعذاب على موافقة الهوى وبيل، فأين لذة أمس؟ رحلت وأبقت ندمًا، وأين شهوة النفس؟ كم نكست رأسًا، وأزلت قدمًا . . .»[٤٠].

ثالثًا: السير الذاتية: لعل البذور الأولى لهذا اللون الأدبي عند أهل الحديث تعود إلى ما دونوه عن أحوال

الرجال - حملة الحديث - من تقييد لمواليدهم وضبط لوفياتهم، وتمييز لطبقاتهم، وتعريف بأقدارهم في العلم والعمل، ودلالة على مراتبهم في الجرح والتعديل.

ونحب هنا أن نلفت النظر إلى أن مفهوم السيرة الذاتية كما هو معروف الآن، لم يكن واضح المعالم عند أدباء العرب عامة، وأهل الحديث خاصة، ذلك أن الترجمة الذاتية «نشأت مختلطة غير متميزة، إذ كان يرصد الكثيرون مشاهدهم، وأحاسيسهم من خلال الموضوعات العامة، فيلتقطها القارئ الدارس التقاطًا، وقد تسطع على فترات كما يسطع البرق في غيم متكاثف»[٤١].

ومع ذلك وجدت بعض الأعمال الأدبية التي يمكن اعتبارها محاولات أولى في طريق تأسيس هذا اللون، وهذه المحاولات تنقسم إلى قسمين:

١ - سير ذاتية: ونعني بها تلك السير التي دبجتها يراعة أصحابها، تسجيلاً لكل ما يعن لهم من خواطر وسانحات حول قضايا مختلفة في الدين والسياسة والاجتماع، وممن يمثل هذا الاتجاه ابن حزم في «طوق الحمامة» وابن الجوزي في «صيد الخاطر».

وهناك اتجاه آخر في هذا القسم، يعنى أصحابه بالإخبار عن أحوال شخصية متعلقة بطلب العلم، وذكر مشايخ الإفادة، والكتب المسموعة إلى آخره[٤٢]، وممن يمثل هذا الاتجاه: كثير من أهل الحديث نذكر من بينهم: الحافظ ابن حجر في «المجمع المؤسس بالمعجم المفهرس»، والحافظ السيوطي في «التحدث بالنعمة».

٢ - السير المفردة للأعلام: وهي تلك السير التي ترجم فيها أهل الحديث لأعلامهم في كتب مخصوصة، إخبارًا عن أحوالهم، وإظهارًا لمناقبهم، وتحدثًا عن لطائف منن الله عليهم، ومن بين هذه السير: مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي، وتوالي التأسيس بمعالي ابن إدريس (الشافعي) للحافظ ابن حجر، و«الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للحافظ السخاوي (ت ٩٠٢هـ) وغير ذلك.

٥ - الخطب: وهذا اللون من التعبير مرآة تجلي ما كان عليه أهل الحديث من ذلاقة اللسان، ونصاعة البيان، ودربة على الإجادة في النطق، والفلج في القول، ونسوق فيما يلي نموذجًا واحدًا نستدل به على ما وراءه، فقد خطب القاضي عياض مرة فقال: «عباد الله سلموا الأمور إلى من بيده أزمة مقاديرها تنجحوا، واستروا راحة قلوبكم بإخلاص التوكل على الله تربحوا، واعلموا أن الحرص لا يزيد المرء على ما قسم له، وتصاريف القدر تقطع لكل أمل أمله، وإنما يدرك الإنسان بسعيه ما كتب له لا ما طلب، ويبلغ بكده ما قسم له لا ما أمل واحتسب، فأجملوا رحمكم الله في الطلب توفقوا، وتوكلوا على الله حق توكله ترزقوا، وأريحوا أنفسكم من النصب في طلب الدنيا والكد فإنه لا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع، ولا ينفع ذا الجد منه الجد، ألا وإن التوكل على الله، والثقة به أحد أبواب الإيمان، ومن أفضل درجات العدل والإحسان، وهو حقيقة العبُودية والتوحيد، ومُوجب الرضا والتسليم للرقيب الشهيد، فقد جرى القلم بما كان ويكون، ونفذ قضاء الله بكل خير وشر، وحركة وسكون، وانقطعت الأطماع عن تأميل غير ما تقدم من مشيئاته، ﴿وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً، لا مُبدل لكلماته﴾. ففيمَ التعب والطلب؟ وقد سبق لك في الكتاب ما سبق؟ وعلامَ اللهف والأسف على أمر قد فرغ منه قبل أن تخلق؟ ألم يضمن لك ربك رزقك، وما وعد في سمائه؟ ألم يُعلمك أنه لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه؟ فعامل ربك أيها العبد بالتوكل والتسليم، تفز بالعيش الهنئ، والثواب الجسيم...»[٤٣].

ونُلمُّ ههنا، بعد أن سيق الكلام قبل في أنواع نثر أهل الحديث، ببعض خصائصه الفنية، ونتحدث عنها من جهتين:

أولاً - من حيث المضمون:

نقف على ما يلي:

أ - تأثر نثر أهل الحديث بالمعاني الإسلامية، والمثل العليا التي جاء بها القرآن الكريم، وهذا أمر بين الظهور فيما ذكرناه آنفًا من نصوص نثرية، وفيما لم نذكره.

ب - تأثر نثر أهل الحديث، بالسنة النبوية التي شرفوا بحمل معانيها، ونقل ألفاظها، فلا جرم أن يكون نثرهم متشبعًا بالتصور الإسلامي في نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، وفي تصويره لدقائق النفوس والضمائر والمشاعر.

ولقد كان من نتائج أثر القرآن الكريم والحديث النبوي في نثر أهل الحديث أن انفرد بخصائص قل اجتماعها في غيره وهي:

١ - توخي الإيجاز في الإشارة إلى المعاني، ومجانبة الإسراف في ذكر التفاصيل التي تصور دقائق الوقائع، وذلك للوقوف - في أسرع ما يمكن - على العبرة الأساسية، والمقصد الأهم.

٢ - تنكب الإغراق في الخيال الجامح، والمغالاة في العاطفة، والاعتماد على الوجدان امتثالاً للمنهج القرآني الذي يقول: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[٤٤].

٣ - مخاطبة العقل والقلب معًا، وتلبية رغبة كل واحد منهما في تناغم وانسجام.

ثانيًا - من حيث الشكل:

تأثر نثر أهل الحديث بأسلوب القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وهذه الميزة عامة في النثر العربي الذي وُجد بعد الإسلام، فلقد التمس الأدباء منهج القرآن في الأسلوب «من حيث أنه أفصح ألفاظًا، وأسهل تركيبًا، وأعذب تعبيرًا، ومن حيث أنه أمتنُ سبكًا، وأبرع دلالة، وآنق ديباجة»[٤٦].

والتمس الأدباء - أيضًا - منهج الحديث النبوي في الأسلوب، ذلك أنه «ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله»[٤٧].

وهكذا نهل أهل الحديث في أنواع نثرهم من معين القاموس الإسلامي قرآنًا وحديثًا، فصدروا وقد ارتووا فسقوا غيرهم، وجاءت تراكيب نثرهم متآلفة الألفاظ، متجانسة الكلمات، متلاحمة مترابطة.

وأولى أهل الحديث الألفاظ عناية فائقة، وذلك باختيار المأنوس منها، الذي جرى به الاستعمال، فقرب منه الأسماع، وألفته القلوب، وليس يعني هذا الإسفاف والابتذال، بل إن ذلك يعني سلوك سبيل الانتقاء والانتخاب، مع مراعاة أفهام السامعين، وملكات المخاطبين.

بيد أن النثر الفني عند أهل الحديث سار بسيرة النثر العربي عامة، ففي القرون الأولى كان النثر مُرسلاً، خاليًا من الصنعة اللفظية، والمحسنات البديعية إلا ما سمحت به الطبيعة، وجاء عفو الخاطر من غير تكلف أو تعمل، وما إن جاء القرن الرابع وما يليه، حتى قصد الأدباء - وأهل الحديث منهم - إلى البديع قصدًا، وآثروه على الأسلوب المرسل، والطبيعة المواتية[٤٨]، وركبوا إلى ذلك طرقًا مختلفة من بينها إيثار السجع، والقصد إلى استعمال المجاز والإسراف في ذلك، وهلم جرًا.

وبعد: فتلك جولة في رياض نثر أهل الحديث، قصدت من ورائها تجلية جانب منسي من تاريخ أدبنا العربي، وإيقاظ همم من شدا طرفًا من الأدب إلى الإقبال على قراءة هذا اللون من الأدب الرفيع، كما قصدت بعث عزائم أدبائنا وأرباب صناعة الكلام فينا إلى النظر في هذا الأدب بحثًا ودراسة، لبيان حاجة الأدب الإسلامي اليوم إلى الاقتداء بهديه، والاقتباس من نوره.

الهوامش:

(١) يتفاوت هؤلاء في الإشارة إلى نثر أهل الحديث قلة وكثرة، فمنهم من لا يذكره إلا عرضًا، ومنهم من يذكره ضمن أدب الوعاظ والزهاد والقصاص، ومنهم من لا يعرج عليه البتة.

(٢) انظر من أول الكتاب إلى ص٢٠، طبعة دار الثقافة، الدار البيضاء ١٩٨٨م.

(٣) انظر مقالاً لنا بعنوان: «شعر أهل الحديث» في مجلة «الإحياء» التي تصدر عن رابطة علماء المغرب، العدد الخامس، رقم١٧ من السلسلة الجديدة (ص١٢٥ - ١٢٨).

(٤) انظر: الجامع لأخلاق الراوي (ج٢، ص٢٦) للخطيب البغدادي، دار المعارف، الرياض.

(٥) انظر: الجامع لأخلاق الراوي (ج٢، ص٢٧).

(٦) طبقات الشافعية الكبرى (ج٦، ص١٦ و١٧) للتاج السبكي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٧) انظر: بغية الوعاة للسيوطي (ج٢، ص٢٥١)، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان.

(٨) بغية الوعاة (ج٢، ص٢٥٢).

(٩) بغية الوعاة (ج١، ص٤٩٤).

(١٠) انظر: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، للكوني (ص٦٣ و٦٤)، دار المعرفة، بيروت، بلا تاريخ.

(١١) انظر: أدب الكاتب (ص٨)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٨٢هـ.

(١٢) انظر: أدب الكاتب (ص١).

(١٣) انظر: مولفات هؤلاء في: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (ج١، ص٣١٥ و٤١٧)، طبعة دار إحياء التراث العربي، و«الفهرست» لابن النديم (ص٧٧)، دار المعرفة، بيروت، و«الرسالة المستطرفة» (ص١١٥ و١١٦)، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٤) وطبع باسم: «تصحيفات للمحدثين»، ووهم محققه، فنسبه إلى أبي هلال الحسن بن عبدالله العسكري (ت٣٩٥هـ) صاحب الصناعتين!!!

(١٥) صاحب «النهاية في غريب الحديث والأثر»، وانظر: الرسالة المستطرفة (ص١١٧).

(١٦) انظر: طبقات الشافعية الكبرى (ج٦، ص٢٩).

(١٧) هو ابن بسام صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المتوفى سنة ٥٤٢هـ.

(١٨) يعني يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي.

(١٩) طبقات الشافعية (٦/ ١٥٥).

(٢٠) انظر: الينبوع المغربي في الأدب العربي (ج١١، ص٣٢٧)، عبدالله كنون، بلا تاريخ ولا مكان الطبع.

(٢١) انظر: فهرسة ما رواه عن شيوخه لابن خير الإشبيلي (ص٣٢٠ - ٣٩٤)، دار الآفاق ١٣٩٩ هـ.

(٢٢) انظر: إنباء الغُمر في أنباء العُمر، للحافظ ابن حجر (٧/ ١٦٢)، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ.

(٢٣) انظر: معرفة علوم الحديث للحاكم (ص١)، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ.

(٢٤) انظر: معجم الأدباء، لياقوت (ج٩/ ١٢)، دار الفكر، بلا تاريخ.

(٢٥) انظر: رسالة الليث بن سعد، يناقش مالكًا في عمل أهل المدينة وغيره من المسائل العلمية في: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ٩٤-١٠٠)، لابن القيم، تعليق محمد محيي الدين عبدالحميد.

(٢٦) انظر: الرسالة بطولها في: المعرفة والتاريخ (ج٢/ ص٧٩٥ - ٧٩٧)، للفسوي، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة ١٤٠١هـ.

(٢٧) الإجازة عند أهل الحديث طريق من طرق سماع الحديث، وتعني الإذن بالرواية، وأركانها: مجيز (الشيخ)، ومجاز (الطالب)، ومجاز به (الكاتب إلخ)، وصيغة الإجازة، وانظر: تدريب الراوي للسيوطي (٢/ ٤٧)، دار الفكر.

(٢٨) ذكره ابن رشيد السبتي في رحلته «ملء العيبة ...» (ج٢، ص٨٤)، تحقيق الحبيب بلخوجة، تونس. فوصفه قائلاً: «الفقيه الأديب الكاتب البليغ الحافظ الناقد العلامة ... فريد دهره، أمير في نظمه ونثره».

(٢٩) انظر: رحلة ابن رُشَيد (ج٢، ص١٠٨ - ١٠٩).

(٣٠) انظر: جمهرة رسائل العرب (ج٢، ص٢٣٠)، أحمد زكي صفوت، دار المطبوعات العربية.

(٣١) أفرد السيوطي هذه المقامة لنقد صنيع السخاوي في تاريخه «الضوء اللامع في أعيان القرن السابع».

(٣٢) انظر: مقامات السيوطي (ج٢، ص٩٣٥ و٩٣٦)، تحقيق: سمير محمود الدروسي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ، وقد نوه د. شوقي ضيف ود. مصطفى الشكعة بمقامات السيوطي، واعتبرها الشكعة جديرة بأن يحتفل بها، وأن يلتفت إليها، وأن تنشر على المتأدبين والدارسين بعد تحقيق دقيق.

(٣٣) الينبوع المغربي (ج١، ص٣٢٦).

(٣٤) د. زكي مبارك «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» (ج٢، ص١٥٣).

(٣٥) انظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص٤٨ و٤٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.

(٣٦) تنخيلهم: تمييزهم.

(٣٧) انظر: الإلماع إلى أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض (ص٧) تحقيق السيد أحمد صقر.

(٣٨) انظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم (ص٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ.

(٣٩) انظر: المدهش لابن الجوزي (ص١٧٨)، دار الجيل، بيروت ١٩٧٧م.

(٤٠) انظر: لفتة الكبد (ص٢١ - ٢٣)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٤١) د. محمد رجب البيومي «منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذاتية»، مجلة الأدب الإسلامي، المجلد الأول، العدد الثالث، محرم - صفر - ربيع الأول ١٤١٥هـ (ص٨).

(٤٢) يسمي أهل الحديث هذا النوع من الكتب - التي تذكر فيها هذه الموضوعات - المشيخات، أو الفهارس أو الاثبات أو البرامج أو المعاجم.

(٤٣) انظر: الينبوع المغربي (ج١١، ص٣٥٠ - ٣٥٢).

(٤٤) سورة الشعراء، الآية ٢٢٦.

(٤٥) انظر: «خصائص الأدب العربي»، أنور الجندي (ص١٣٣)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ودار الكتاب المصري، الطبعة الأولى.

(٤٦) المصدر السابق.

(٤٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي (ص٢٧٩)، دار الكتاب العربي، بيروت، بلا تاريخ.

(٤٨) نقول هذا بحسب الأغلب الأعم، وإلا فثمة أدباء من أهل الحديث تنكبوا سبيل البديع، فجاء نثرهم على الطبيعة مرسلاً، خاليًا من الصنعة المتكلفة، قائمًا على الصدق في الإحساس، والعمق في الفكرة.